الأنثروبولوجيا .... نحو أناسة ممنهجة

أ.م.د. مازن مرسول محمد *

ملخص :

رغم أنّ الأنثروبولوجيا بالمقارنه مع العلوم الأخرى ليست ذات جذور قديمة، إلا أنّه يمكن القول أنها استطاعت أن تُرسَّخ جذورها في مساحاتٍ واسعة من العالم من خلال التراكم المعرفي الذي ابتكره العلماء والمنظرون والباحثون، الأمر الذي جعل منها علم ذو أهمية كبيرة، لكونها قد تداخلت وتمددت في تربة علوم معرفية أخرى منها الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، للوقوف على التعقيدات التي تظهر مع تطورات الحياة البشرية، فشكّلت الأنثروبولوجيا دراسة الإنسان من ناحية تطوره البيولوجي واختلاف نظمه الاجتماعية والثقافية وانتقال السمات الوراثية والثقافية والتغييرات التي ممكن أن تطرأ عليه بمرور الوقت، ونظراً للحاجة الكبيرة لهذا العلم وتنوع الدراسات حوله الأمر الذي استدعى اشتقاق العديد من العلوم المعرفية الأخرى منه التي تُثبَّت أساسات العلم وتزيد من توسعه، فالمحاولة هنا هي إلقاء الضوء على ماهية هذا العلم وفروعه وتطوره وصور ظهوره في المجتمعات العربية ومدى توسعه فيها.

Anthropology : toward Systematic Anthropology

Abstract : Although the anthropology compared with other sciences are not of ancient roots , but it can be argued that it was able to take root in large areas of the world through the accumulation of knowledge created by scientists, theoreticians and researchers , which made them aware of great significance , because it has overlapped and stretched in soil Science knowledge Other including natural, social and human , to stand on the complications that appear with the developments of human life , and formed anthropologists study human hand evolution of biological and different organized social, cultural and transmission of genetic traits and cultural changes that possible that incurred by it over time , and because of the great need for this science and diversity Studies around which summoned the derivation of many of the cognitive science other than proving that the

* – أستاذ الأنثروبولوجيا – الجامعة المستنصرية / العراق

foundations of science and increase the expansion , the attempt here is to shed light on the nature of this science and its branches and its development and photographs appearing in Arab societies and the extent of the expansion.

مُقدَّمة

تتخطى الأنثروبولوجيا حدود التخصيص وتطرح نفسها كعلم يقوم على الشمول من ناحية دراسة كل ما يتعلق بالإنسان، متداخلة بذلك مع العديد من التخصصاتِ العلمية الأخرى من طبيعية واجتماعية وإنسانية، فانطلقت الأنثروبولوجيا على يد الرواد الأوائل لتعرية الحياة الإنسانية بالغور والتنقيب عن تطور الجنس البشري من ناحية المجال البيولوجي والتغيير في السمات الفيزيقية والانتقال للجينات الوراثية وتغير لون البشرة والعيون وأحجام العظام والجمجمة وتتبع التطور الثقافي بجانبيه المادي والمعنوي وكيفية تشكيله واهتماماته والطقوس التي تشكَّلها الثقافات والمقارنة بين قديم التطور البشري وحاضره ومستقبله من خلال التوصيف والتحليل والتفسير القائم على أدوات بحثية تُمكَّن الأنثروبولوجيا من التوصل إلى نتائج تُسهم إسهاما مميزاً في معالجة أزمات وتقلَّبات الحياةِ البشرية.

لقد ساهمت الأنثروبولوجيا في منَّهجة الحياة وإزالة اللبس والغموض عنها بشكلٍ مباشر، إذ أصبحت بمثابة بوصلة يقيس على أساسها الإنسان سلسلة حياته ومتغيراته التي يعيش في ثناياها مُعتمدةً بذلك على التداخل في الجذور مع العلوم الأخرى والتي شكَّلت انطلاقات نوعية لها، ولاشتقاق فروع معرفية أخرى تعنى بظاهرة معينة تهم الكيان الإنساني، ورغم اتساع هذا العلم في المجتمعات التي انطلق منها وبات يمثل علامة فارقة إلى جانب العلوم الأخرى، إلا أن اتساعه ما زال بسيطاً على مستوى المجتمع العربي، الأمر الذي يحتاج إلى جهودٍ كبيرة تساعد على توطين هذا العلم والإفادة منه بشكلٍ يؤدي إلى فتح آفاقٍ أوسع للتعرَّف على خفايا الشأن الإنساني في الحياة .

ووفقاً لذلك نحاول الخوض في هذا الموضوع بالتطرق إلى ماهية الأنثروبولوجيا من خلال إماطة اللثام عن أبرز الاشتقاقات التي تطرَّقت لها والإفصاح عن معاني الكثير منها، ثم التعريج على الأساس الذي استندت عليه الأنثروبولوجيا من فروعٍ معرفية مهمة قد شكَّلت انطلاقات هذا العلم، وما تم التوصل إليه من فروعٍ أخرى ومازال لحد اليوم من

تراكماتٍ معرفية ممكن أن تضيف لهذا العلم الكثير من الأطروحات الفكرية المهمة في إدارة حياة الإنسان.

بعد ذلك التطرق إلى مساهمة الأنثروبولوجيا باعتبارها علم في منهجة الحياة الإنسانية ووضع الصيغ المناسبة لسيرها، من خلال تعرية الجوانب الغامضة فيها واستدراك المشكلات التي تفتك بها ومعرفة تطوراتها وما يمكن العمل وفق الواقع لتجاوز تلك المشكلات والتفكير بالمستقبل المطلوب على أساس ذلك الفحص الأنثربولوجي الممنهج. ومن ثم الإشارة إلى بعض المعطيات والصور لواقع الأنثروبولوجيا العربية وكيفية نشوءها وأبرز المشكلات التي واجهتها ومازالت في المجتمع العربي وصعوبات تأسيس قاعدة صلبة لها وفق كل تلك المخاضات وما يجب التفكير به لتحقيق أهداف توطين الأنثروبولوجيا العربية وفق أسس رصينة.

أولاً : الأنثروبولوجيا في تأصيل المعنى والمفهوم :

في محاولةٍ لاستدراج المعنى الحقيقي لمفهوم الأنثروبولوجيا وعلى ماذا انطوى لغرض التأسيس لرؤى واضحة تُشكّل الموضوع الأساس لحقل الأنثروبولوجيا وللتمدَّد في تربة العلوم بشتى صنوفها واكتساب الرسوخ، لذا لا يمنعنا ذلك من القول أنّ الأنثروبولوجيا كمفهوم وعلم قد أُثيرت حوله الكثير من وجهات النظر التي يعتريها اللبس والغموض، وانقسمت هذه الوجهات بين من لم تطرق مسامعها أصداء هذا العلم نهائياً وبين من تخلط بينه وبين العلوم الطبيعية الأخرى، وبين من تعرفه ولكن بشكلٍ غير دقيق، إلا أن هناك من يملك أرضية واسعة حول هذا العلم ومتضمناتهِ، لذلك فنحن هنا بحاجة إلى محاولةٍ لكشف هذا اللبس والغموض ووضع الخطوط الرئيسة لهذا العلم، الذي ربما قد جاء متأخراً نوعاً ما في الظهور مقارنةً بالعلوم الأخرى الطبيعية منها والإنسانية والاجتماعية.

فما المقصود بالأنثروبولوجيا من ناحية المفهوم واشتقاقاته ؟

إن التعريف الاشتقاقي للأنثروبولوجيا يتكون من لفظتين الأولى هي الكلمة الإغريقية (Anthropos) ومعناها إنسان والثانية لوغوس من (Logos) ومعناها خطاب أو بحث أو دراسة أو علم ويستخدم هنا علم، على أنّ المعنى الفلسفي للأنثروبولوجيا

يصفها على أنّها علم وصفي للإنسان والتعريف الاصطلاحي بأنها علم من العلوم الإنسانية الذي يهتم بكل جوانب الحياة الإنسانية (تيلوين ، 201 :19)، وهنا يبرز التحديد الرئيسي لمعنى مفهوم الأنثروبولوجيا كعلم يهتم بكل ما يتعلق بحياة الإنسان ومتضمناتها، وبذلك تتضح التفرَّعات المهمة التي تتداخل بها الأنثروبولوجيا مع العلوم الأخرى التي تتناول جانب من جوانبِ الحياة .

ولعل أولى استخدامات الأنثروبولوجيا كانت في علم وظائف الأعضاء والتشريح، والتي سُميت بعد ذلك بالأنثروبولوجيا البيولوجية، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر استخدم اللاهوتيين الأوروبيين هذا المصطلح للإشارة إلى إسناد ميَّزات الإنسان إلى الآلة (Barnard,2004:p.1-2).

بمعنى أنّ الوظيفة الحقيقية للأنثروبولوجيا قد برزت في علومٍ أخرى، فهي استُخدمت في تشريح الأجساد البشرية وفحص الأعضاء، على اعتبار أنّ هذه العمليات تتعلق بالإنسان وتُشكِّل جزءا واحدا من اهتمامات الأنثروبولوجيا بشكلٍ عام، أي أنّ العلوم اهتمت بوظائف الأنثروبولوجيا قبل نشوء هذا العلم وتطوره في أوقات لاحقة.

ولعل الكثير من العلوم التي تندرج في تسلسلاتها ما بين العلوم الطبيعية أو الاجتماعية والإنسانية قد ركَّز كلاً منها على جانبٍ من جوانبِ حياة الإنسان، فالبيولوجية مثلاً اهتمت بكل ما يتعلق بالنشأة البيولوجية للإنسان وتطوراتها وما ينتج عنها، وتتداخل معها العلوم الطبيعية الأخرى في دراسة ما يخصها بالإنسان، وعلوم اجتماعية وإنسانية تتعلق مثلاً بتجمعات الإنسان وبسيكولوجيته والاقتصاد الذي يتعامل به وسياسة الدولة التي يعيش فيها وغيرها من العلوم الأخرى، في حين أنّ الأنثروبولوجيا شملت أكثر هذه التخصصات في دراسة الإنسان.

وعلى الرغم من قِدم استخدامات هذا المصطلح في تاريخ المعرفة الإنسانية إلا أنّ استعماله بدأ فعلياً مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث ازداد الاهتمام به وبخاصةٍ في الأوساط الثقافية الأنجلو-ساكسونية (بريطانيا وأميركا)، وكان الاهتمام في تلك المرحلة قد انصبَ على الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيقية، حيث كان الجسد محور اهتمام الدراسات الأنثروبولوجية آنذاك (تيلوين،2011: 17)، أي أنّ انحداراتها بدأت من العلوم التي اهتمت بجسد الإنسان من تشريح ومعرفة وظائف الأعضاء، وبعد

ذلك تراكمت المعرفة الأنثروبولوجية لتفصح عن اشتقاقات فرعية تابعة للأنثروبولوجيا شملت كل ما يتعلق على الأغلب بالإنسان.

وفي تلك الفترة بالذات بدأت ملامح الأنثروبولوجيا كعلم تظهر وبدأ الاتفاق حول اشتقاقات المفهوم العلمي، رغم الصعوبات الكثيرة آنذاك في محاولة تثبيت الحدود المعرفية له، على أنّ الأنثروبولوجيا لم تحقق نتائج مرضية ممكن أن تقنع العلوم الأخرى بما توصلت له في بادئ الأمر، وذلك بسبب اعتمادها في بداية نشوءها على توصيفات الرحالة والمبشَّرين، إلى أن دخلت بعد ذلك في حيز التجريب الميداني واستخدام الميدان كتطبيق فعلي لرصد الظواهر وكل ما يتعلق بكيان الإنسان، عندها بدأت ملامح الأنثروبولوجيا تتضح وأصبحت نتائج تنظيراتها يُعتمد عليها من قبل العلوم الأخرى وحققت نجاحاً ملموساً آنذاك في التوطّن وأخذ مكانا لها بين العلوم الأخرى.

لقد أخذت الأنثروبولوجيا عند ولادتها بالاتجاه التطوري واعتبرته منهجاً لها، وهو الاتجاه الذي افترض أنّ البشرية قد مرَّت بثلاثِ مراحل هي مرحلة الهمجية (Savagery) والبربرية (Barbarism) والمدنية (Civilization)، وقد واجهت الأنثروبولوجيا التطبيقية في البدء مشكلة حول ما إذا كان المطلوب منها هو معالجة كل ما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية والبيئية، أم أنّ مهمتها تتركز على تصحيح المعايير الاجتماعية في المجتمعات التي تدرسها (النوري ، 1990 : 108–109)، الأمر الذي يُبرَّر عدم ارتكاز العلم على أُسس واضحة في بداية نشأَته، وهو تحول ومسيرة ربما تكون طبيعية في نشأة العلوم التي تحتاج إلى فتراتٍ زمنية لتكتمل ملامحها، ويبقى ذلك رهن العمل والتفوق والإبداع في التنظيرات العلمية الخاصة بالعلم ذاته وكيفية تطبيقها على أرض الواقع للحصول على نتائج مُرَضية للجنس البشري.

إنّ الأنثروبولوجيا تتمحور حول دراسة الإنسان من ناحية الأصول والتطور، والتغيرات المعاصرة أينما ومتى تم العثور عليها، وهي الأوسع في دراسة البشر من جميع التخصصات الأخرى التي تُعنى بجانبٍ معين من جوانب الإنسان، وتتمثل موضوعاتها بدراسة البقايا المتحجرة من الهياكل العظمية للبشر في المراحل الأولى من الحياة وغيرها من المواد التي لا تزال في المواقع الأثرية ما قبل التاريخ وجميع الثقافات التاريخية والمعاصرة في العالم (Ferraro–Andreatta,2010:4)، وهي بذلك تشترك

مع كثير من التخصصات المعرفية ولكن على نطاقٍ أوسع وتجمع بين ما هو اجتماعي من نظم وقوانين وما هو ثقافي مادي ومعنوي يتعلق بحياة الإنسان، وتحاول تتبع حياة الإنسان من الماضي إلى الحاضر بكل تقلباتها وتطوراتها ورصد التغييرات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية المختلفة له وتُنقَّب في الأرساس والمتحجَّرات وغيرها من الأمور التي تتعلق بحياة الإنسان.

وتهتم الأنثروبولوجيا من حيث كونها علم من العلوم الإنسانية بدراسة قيم الإنسان (القيم الجمالية، الدينية، الأخلاقية، الاقتصادية ، الثقافية والاجتماعية) وبكافة المكتسبات الثقافية الخاصة بالإنسان (تيلوين،2011 :20)، وبذلك تكون الأنثروبولوجيا وفق غورها العميق في متضمناتِ الإنسان أكثر التصاقاً بحياةِ البشر جامعة بذلك بين اتجاهات ورؤى مختلفة تُشكَّل حياة المجتمعات ويسعى الأنثربولوجي إلى كشفِ المتغيرات التي تحدث في هذه المجتمعات وتتبَّع التطورات التي تنتقل من خلالها من طورٍ إلى آخر.

ولعل من بين الأمور التي تهتم أيضا بها الأنثروبولوجيا هي الأحداث التاريخية التي آلت إلى الظروف الحاضرة ، وعوامل تباين أشكال الحياة الاجتماعية سواء اشترك في تكوينها عامل واحد أم عدة عوامل (النوري ، 1986 :7)، إذ تقوم باجترار الماضي التطوري للإنسان سواء في جسدهِ أو نظمهِ الاجتماعية والثقافية وعاداته وتقاليده وطقوسه الخاصة والعامة وكيفية تكوُّنها وفق ما يلاءم الحياة والفترة الزمنية المُعاشة.

" ويتناول هذا العلم أيضا العمليات التي أحَّدثت تحولاً في تركيب السلالات أو العناصر Races، واللغات والحضارات، وأنواع الاتجاهات النفسية في مختلف الحضارات وتركيب الشخصية التي تُعبَّر عنها، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وهذه في الواقع بعض المشكلات والظواهر التي يدرسها علم الانسان " (النوري ، 1986 :8).

ويمكن القول أنّ الأنثروبولوجيا تُنقَّب بشكلٍ عميق في كل دقائق حياة الإنسان، ومن ذلك اتجاهاتها نحو التحقيق في نشوء السلالات البشرية وتطورها وتفرَّع اللغات واختلافاتها بين مجتمع وآخر وعلى ما تنطوي عليه هذه التغيرات اللغوية في طبيعة الإنسان وتفاعلاتهِ وثقافتهِ ومستويات تعاملاتهِ مع الآخرين، وكذلك البحث عن أصل تكوَّن الحضارات والصور التي وصلت لها من خلال البشر الذين عايشوها وشكَّلت امتداد إلى آخرين يعيشون بسماتهم الحضارية المختلفة في الوقت الحاضر.

وبدون شك فإن شمول الأنثروبولوجيا لكثيرٍ من جوانب حياة الإنسان تبدو مهمة صعبة للغاية على الباحث وواضع الأسس الأنثروبولوجية وعلى تراكم الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فالخوض في ميدان التجريب الأنثربولوجي يعني النزول إلى كل ما يتعلق بحياة الإنسان وطرق جانب أو عدة جوانب منها بالاستفادة من الأدوات البحثية التي جاءت بها لغرض الوقوف بشكلٍ جدي على نتائج هذا التجريب الأنثربولوجي الميداني، والذي يُعد من مكتسبات هذا العلم الأساسية.

ولما كان الإنسان من الناحية الأنثروبولوجية هو كائن يرتبط عضوياً بمجموعة (الرئيسيات) (Primates) والتي تضم القردة العليا والثدييات، لذلك فقد سعى الأنثروبولوجيون للبحث عن الموقع التاريخي لهذا الكائن والمتمثل في الإنسان في العديد من الأقاليم التي انتشر فيها في الماضي البعيد، من آسيا وإفريقيا وجنوبي وأواسط أوروبا، ونجح الباحثون في التوصل إلى إيجاد أشكال مختلفة للإنسان البائد كان أبرزها نماذج (هايدلبرغ) Heidelberg ونياندرتال Neandertaltd في نهاية عصر كواترنري Quaternary الجيولوجي (النوري ، 1986 :12).

إنّ هذا العلم والمسمى بالأنثروبولوجيا بات في وقتنا الحالي يرتبط بفكرة الأجناس والأعراق البشرية والإنسانية من حيث قيمها وثقافتها، ولعل من أبرز من مثَّل هذا الاتجاه كلود ليفي ستراوس Claud Levy Strauss الأنثربولوجي الفرنسي (تيلوين،2011: 21)، وتشكيله لنظريته البنيوية التي وضعت ركناً مهماً في ميدان الأنثروبولوجيا، وإضافة لذلك أعطت لهذا العلم دفعة إلى الأمام وترسيخاً لحدودها التي تحتاج إلى تدعيمٍ بأطروحات فكرية ممكن أن تُكرَّس المعرفة فيها للبحث عن خفايا الكيان الإنساني.

ووفق كل هذه المعطيات التي أشارت إلى صورِ نشأة الأنثروبولوجيا كعلم وعلى ماذا انطوى والغرض منه، يمكن القول أنّه رغم الفترة القصيرة التي نشأ من خلالها هذا العلم بالقياسِ إلى العلوم الأخرى ومدى غوره في التاريخ، إلا أنّ الأنثروبولوجيا قد كشفت عن أقبية مهمة وغامضة تشكل جوانب متعددة في الحياة الإنسانية كانت تنتظر الإفصاح عن ملابساتها، ووجدت الأنثروبولوجيا موطأ قدم لها وتوغلت لفك رموز كل هذه الأحجيات، إلا أنّ ذلك لا يعني أنها قد وصلت إلى طور النضوج الكامل وإنما مازالت

بحاجةٍ إلى تراكماتٍ معرفيةٍ تطبيقيةٍ أكثر لزيادة رسوخها ومد جذورها بشكلٍ أعمق مع العلوم الأخرى.

ثانياً : التراكم المعرفي والحاجة لاشتقاق الفروع الأنثروبولوجية

من البديهي أنّ بدايات العلوم من ناحية الصورة والأوضاع تختلف عنها بعد تراكم المعرفة فيها، الأمر الذي يؤدي إلى الوصول إلى درجاتٍ من التكامل، وذلك الأمر يتوقف على الإبداعات البحثية التي من الممكن أن تُضيف إلى العلم وتقفز به إلى محطاتٍ أعلى، مما يؤدي ذلك إلى ترسيخ حدودهِ بشكلٍ أكبر.

ولا يشذ الأمر مع الأنثروبولوجيا فبعد إلمام المنظرين أمثال راد كلف براون وايفانز بريتشارد ومالينوفسكي وفرانز بواس ومركريت ميد وشتراوس وغيرهم، كان لابد لهذا العلم أن يفصح عن نفسه ومركزيتهِ بين العلوم بصورةٍ أكبر ولسد الفراغ في كثير من الظواهر التي تحتاج إلى دراسةٍ وتحليل، لذلك بدأت الأنثروبولوجيا باشتقاق الفروع المعرفية منها بحسب ما يتلاءم ونوعية الظواهر والظروف التي يبغي دراستها، على أنّ ذلك التفرَّع ليس حتمياً لكل علم تمر فترة زمنية سواء كانت طويلة أو قصيرة على نشوئه، وإنما يعتمد ذلك على الاجتهادات الفكرية وملامح الإبداع التي يطرحها مُفكَّري ومنظري هذا العلم.

لقد برزت العديد من الفروع كاشتقاقات من الأنثروبولوجيا لتواجه كمّ الأسئلة الهائل حول العديد من الظواهر التي تحتاج الغور فيها والتمكين من دراستها، واختلطت بعض الفروع مع بعضها الآخر في بداية الأمر إلى أن تم وضع الحدود المميزة لها بعد ذلك، فبرزت الأنثروبولوجيا الطبيعية والاجتماعية والتطبيقية والثقافية والتربوية والاقتصادية واللغوية والبصرية والحضرية والسياسية وما زالت الأنثروبولوجيا بين فترةٍ وأخرى تشتق لها فروع حديثة ممكن أن تُشكَّل عماد الدراسات في الكثير من الظواهر في المستقبل، وسنتكلم عن أغلب هذه الفروع بالإشارة لنشأتها ومدى تطبيقاتها وأهميتها هنا.

لعل العديد من الاختصاصيين في الأنثروبولوجيا يشتغلون في أغلب الأحيان في البحوث التي لها علاقة مباشرة بالحقول الأخرى، حتى تغطي الأنثروبولوجيا الفجوة بين العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الطبيعية، ولتوضيح قضايا مهمة في القيم والعادات

الإنسانية والتقسيم الطبقي الاجتماعي وموضوعات مشتركة أخرى في علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد ودراسات علم التشريح المقارن وغيرها (Ferraro-Andreatta,2010:4)، بمعنى أنها قد تداخلت مع تخصصاتٍ أخرى متعددة لسبرِ غور الكثير من القضايا المبهمة والتي تحتاج إلى حلولٍ من خلال التطبيقات التجريبية الميدانية للوصول إلى نتائجٍ ممكن أن تُتخذ كمنطلقاتٍ لإيجاد حلولٍ لمشكلاتٍ مستعصية وللتشجيع أيضا على إجراء دراساتٍ أخرى ممكن أن تُكمِّل نتائج ما بدأت به غيرها.

كما أن العديد من علماء الأنثروبولوجيا يتعاملون مع بعض، فعلماء الأنثروبولوجيا الطبيعية يدرسون الأنواع المنقرضة وأشكال البشر قبل العصر الحديث، وعلماء الآثار يدرسون المجتمعات البشرية والنظم الثقافية في الماضي (Park,2011:29)، أي هناك تداخل في الإشارة إلى الموضوعات التي تدرسها الأنثروبولوجيا بشكلٍ عام في بادئ الأمر، إلى أن تم تسمية كل فرع وفق ما يتلاءم وطبيعة الظاهرة التي يُراد دراستها.

وقد تفرَّعت الأنثروبولوجيا وفق هذه المعطيات والاهتمامات إلى عدةِ فروعٍ تعمل كل واحدة منها في اتجاهٍ مُعيَّن لتدَّرس جانب من جوانبِ الحياة الإنسانية المختلفة.

لقد ظلَّت الأنثروبولوجيا في عصرها الكلاسيكي خاضعة للإثنولوجيا الوصفية الطارئة التي أعطت أولوية خاصة لوصف المجتمعات التي كانت على وشكِ الاختفاء مقابل توسع الحضارة الأوروبية، في حين آن الأوان ومن خلال تعزيز الترابط الاقتصادي والسياسي والنمو الهائل في حركية الأشخاص والتسارع المحموم في العالم في أن يكون هناك سياقاً ممتداً يشمل الكرة الأرضية على اتساعها (اوجيه-كولاين،2008: 24) بحيث توسَّعت الأنثروبولوجيا بمدياتها وتطبيقاتها ومازالت لهذا الوقت تتراكم المعرفة فيها لتظهر فروع معرفية أُخرى ممكن أن تُساهم في سبرِ غور جانب مهم من جوانبِ حياة الإنسان.

تسمى الأنثروبولوجيا الطبيعية بتسميتها القديمة الأنثروبولوجيا الفيزيقية أيضا، حيث تهتم بالمقارنة بين الأنواع الإنسانية والقرود العليا مثل الشمبانزي والغوريلا أو العلاقة بين البشر الحديث والأسلاف ومقارنة الأجناس البشرية الآن مع الميت من القدماء (Barnard,2004:3)، بحيث تشكَّلت للخوض في بيولوجية الإنسان من حيث التركيب

العضوي لها والوظائف ومقارنتها بأنواع السلالات الحيوانية من القردة من حيث التشابه في بعض الوظائف والتركيبات.

" إنّ الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية هي مجال في الأنثروبولوجيا يحاول أن يبحث في أصل الإنسان، باعتبارهِ نوعاً ينتمي إلى الجنس، والبحث كذلك في الطبيعة وفي مفهوم التطور والأسباب والعلل التي تتحكم في الاختلافات البيولوجية عند الإنسان ومقارنته بالأنواع الأخرى من الكائنات الحية" (تيلوين ، 2011 :30) ، وقد سُميت بعدة تسميات جميعها تشير إلى معنا واحد إذ سُميت بالعضوية لخوضها في طبيعة وتطور أعضاء الجسد الإنساني وتغيره وفق التراكم الزمني، وسميت بالبيولوجية لارتباطها الأكبر ببيولوجية الإنسان والطبيعية لأنها تبحث عن طبيعة التطور الإنساني الجسدي من حيث السمات الشكلية واللون والوراثة، وما تلك التسميات المختلفة إلا إشارة لتراكم المعرفة التي تدل على كثرة التنقيب في هذه الفروع المعرفية والتي تحاول أن تُزيد من رصيد التطور الأنثربولوجي على مستوى العلم الإنساني.

وكذلك من بين ما تركز عليه الأنثروبولوجيا الطبيعية هو التكيَّف البشري والطب الشرعي وأيضا تركيزها على الجينات الوراثية كنوع آخر من الأنثروبولوجيا الطبيعية (Haviland ,2008 :8) ، بحيث يحاول هذا الفرع المعرفي تتبع الطفرات الوراثية الخاصة بالإنسان وكيف كانت طبيعتها وكيف تطوَّرت وعلى أي أُسس قد تغيَّرت وهل ما زالت تحتفظ بالكثير من سماتها في العصور الحديثة، وما هي التغييرات التي تطرأ من جرَّاء هذهِ الانتقالات الوراثية عند الجنس البشري، ويتم ذلك من خلال التنقيب عن البيئات التي كانت تعيش فيها الأجناس البشرية في السابق وكيف ساهمت في انقراض هذه السلسلة الوراثية أم ساعدت في استمراريتها.

ومن بين الأمور التي تعمل عليها الأنثروبولوجيا الطبيعية أيضا هو تركيزها على كيفية اختلاف الصفات الجسدية للسكان في جميع أنحاء العالم، ويسمى ذلك بالاختلاف الإنساني، وعلى النقيض من علماء الأحياء، فإن علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية يدرسون كيف أنّ الثقافة والبيئة تؤثر على التطور البيولوجي للإنسان (Ferraro- 5-6 : Andreatta,2010، ويبرز من خلال ذلك دقة هذا الفرع المعرفي في استخلاص

النتائج البحثية دون دمجها مع نتائج الفروع المعرفية الأخرى، عن طريق التركيز على متغيراتٍ تؤثر في تطور وتغيير وظائف الأعضاء والصور الجسدية للإنسان.

وتعددت اليوم الدراسات التي تخاض في فرع الأنثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية وذلك بعد التغييرات الكبيرة والمذهلة التي لحقت بمورفولوجيا الإنسان بفعل التطورات وزيادة تعقيدات الحياة، وكذلك بفعل النكبات والأزمات والكوارث التي طالت الحياة البشرية وأثَّرت بشكلٍ مباشرٍ في الأجساد وفي الجينات الوراثية، الأمر الذي انعكس على طبائع البشر وثقافتهم المُعاشة.

أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية فتتمثل بكونها تهتم بدراسة النظم الاجتماعية للتعرف على أوجه التكامل والتماثل والاختلاف بين هذه النظم، وتقوم بدراسة كلٍ من التركيب الاجتماعي للإنسان ونظمه الاقتصادية والسياسية والقانونية (عبد الرزاق ، 1989 : 10)، وهنا يغور هذا الفرع المعرفي في كلِ ما يحيط الإنسان في المجتمع من نظمٍ اجتماعية وما تتضمنه ويحاول دراسة التأثير المباشر لها على الإنسان وعلاقاتهِ الاجتماعية وتفاعلاتهِ التي يُشكَّل من خلالها أُسس حياته التي يعيش فيها.

كما أنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس السلوك الاجتماعي الذي يندرج عادةً تحت شكل هذه النظم الاجتماعية كالأسرة ونسق القرابة والتنظيم السياسي والعبادات الدينية والعلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات القديمة أم المعاصرة (عبد الرزاق ، 1989 : 11)، فالسوسيولوجيا قد تمكَّنت من الخوض في هذه النظم الاجتماعية واستطاعت أن تضع لها مرتكزات في كيفية التعامل معها والتوصل من خلالها إلى ما يساعد للحصول على النتائج التي تتطلَّبها دراسة الظواهر والمشكلات الاجتماعية المختلفة، وتحاول الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأدواتها البحثية الخوض في الصورة التوصيفية لهذه النظم والأنساق وتصنيفها وفق ما تنطوي عليه صورها بغرض الوصول إلى نتائج تربط بين أشكالها والتغييرات التي تطرأ عليها وأسباب هذه التغييرات والتطورات.

في حين تسعى الأنثروبولوجيا الثقافية إلى دراسة مختلف المجتمعات والثقافات في كل الأماكن، وأجرى علماء الأنثروبولوجيا الثقافية البحوث في جميع أنحاء العالم من الغابات الاستوائية المطيرة في جمهورية الكونغو الديمقراطية والبرازيل إلى مناطق

القطب الشمالي في كندا، ومن صحاري الشرق الأوسط إلى المناطق الحضرية في الصين، وكذلك البحوث والدراسات على الثقافات غير الغربية في إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وجزر المحيط الهادي وعلى السكان الأميركيين الأصليين في الولايات المتحدة(Scupin , 2012 : 7) ، بمعنى أنها تخوض في البحث عن جذور الثقافة وكيف تتشكل وطبيعتها في كل أنحاء العالم دون التفريق بين مجتمع وآخر أو بين ثقافة وأخرى، بحيث أنّ الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بشكلٍ أكبر بالشقَّين المادي والمعنوي لثقافة الإنسان واختلافاتها وتطوراتها وفق البيئة والظروف التي يعيش فيها الإنسان في أي ثقافة معينة.

فهي تمثل دراسة للسلوك البشري والفكر والمشاعر، حيث تركز على البشر وثقافتهم من قيم وتصورات ومعايير اجتماعية ومظاهر ثقافية، والتي قد تختلف اختلافاً كبيراً من مكانٍ إلى آخر (Haviland ,2008 :9)، وتحاول التركيز على اختلاف السمات والأنماط الثقافية بين ثقافةٍ وأخرى وفي داخل الثقافات نفسها، ومدى مشاركة الإنسان في تغيير الثقافات الخاصة بها وكيفية الاقتباس والتطور والتكامل الثقافي، وأيضا تركَّز على البؤر الثقافية وتركيزها وآلية التنوع الثقافي ومساهمتها في تشكيل الصور الثقافية المختلفة.

ولا تستطيع الأنثروبولوجيا الثقافية الحصول على هذه التوصيفات الثقافية إلا بفضل الإثنوجرافيا التي تمثل وصفاً مفصلاً لثقافة معينة يستند في المقام الأول على العمل الميداني، والسمة المميزة للعمل الميداني الإثنوغرافي هو المشاركة الاجتماعية والملاحظة الشخصية داخل المجتمع قيد الدراسة، وكذلك المقابلات والمناقشات مع أفراد المجموعة المبحوثة وتسمى الملاحظة بالمشاركة، وتوفر الإثنوجرافيا المعلومات لإجراء مقارنات منهجية بين الثقافات في جميع أنحاء العالم والمعروفة باسم الإثنولوجيا والتي تسمح لعلماء الأنثروبولوجيا بتطوير النظريات الأنثروبولوجية التي تساعد على تفسير لماذا تحدث بعض الاختلافات أو التشابهات المهمة بين الجماعات (Haviland , 2007 :15) .

ولم تحظ الأنثروبولوجيا في بداية نشوئها بأهمية كبيرة نتيجة اعتمادها على التخمينات المتأتية من وصف الرحالة والمبشرين، إلى أن تم النزول إلى أرض الميدان والتجريب الحقلي باستخدام الأدوات والمناهج البحثية المختلفة، وبدأت الأنثروبولوجيا

تزداد قوةً ورسوخاً، وقد استخدمت الإثنوجرافيا للوقوف على أكثر التفاصيل دقة لكل مظاهر حياة الإنسان وضمنها ثقافته بما تنطوي عليه لغرض تبويبها ومقارنتها ثم التوصَّل إلى النتائج التي تصبح قواعد أنثروبولوجية مهمة.

وبفعل التغييرات الكبيرة الجارية اليوم على مستوى الحياة البشرية وما وصلت إليه من دخول العولمة وآلياتها وعصور الحداثة وما بعدها، برزت الأنثروبولوجيا الثقافية لتستقصي كل ما تتعرض له الثقافات في ظل هذه الموجات المتلاحقة من التغييرات وبيان صورة العلاقة بين الثقافات الماضية ومع ما يفد إليها من مقتبسات وسمات وأنماط حضارية مختلفة.

في حين تتضمن الأنثروبولوجيا الاقتصادية الدراسات في كيفية أن يتم إنتاج وتوزيع السلع والخدمات واستهلاكها ضمن مجموع السياقات الثقافية التي هي جزء منها، والموضوعات التي يدرسها علماء الأنثروبولوجيا الاقتصادية واسعة منها أنماط وتقسيم العمل وأنظمة الصرف وتنظيم الممتلكات، وكانت الدراسات المبكرة في الأنثروبولوجيا الاقتصادية خلال أواخر 1940 و1950 وصفية إلى حدٍ كبير، لكنها أصبحت أكثر تحليلية في العقود اللاحقة (Ferraro–Andreatta,2010: 13–14) ، كما أنها تهتم بمحاورٍ أخرى من قبل مثلا الوصف الإثنوغرافي لنظم اقتصادية معينة، وتحليل التكوينات الاقتصادية قبل الرأسمالية أو المختلطة، وأيضا تحليل النظم الاقتصادية القومية والدولية والعالمية وتأثيرها على المجتمعات الريفية الصغيرة (سميث،2009 : 113) ، أي تخوض بكل ما له علاقة بالفعاليات الاقتصادية وسلوكيات الإنسان وثقافته ومدى تأثيرها في اشتقاق البيئة المناسبة وفق هذه التشكُّلات الاقتصادية بالأسلوب الأنثربولوجي القائم على الوصف والتحليل والتبويب واستخلاص النتائج.

وتعالج الأنثروبولوجيا التربوية كفرع من فروعِ الأنثروبولوجيا، السياسة التربوية المستخدمة في حياة الإنسان، إذ تنطوي بالمعنى العام على استخدام النظرية الأنثروبولوجية والبيانات والأساليب لدراسة الممارسات التربوية والمؤسسات والمشكلات في السياقات الثقافية المناسبة لهم (Ferraro–Andreatta,2010:13) ، بحيث تدمج بين ثقافة الإنسان وما يخضع له من أساليب تربوية ممكن أن تساهم في تصوير حياة قائمة على أساليب جديدة وأنماط مكتسبة وفق هذه الاتجاهات التربوية التي يخضع لها.

ومن المؤكد أنّ الإنسان منذ نشأة حياته والى الآن خضع إلى عدة قنوات للتربية استطاعت أن تؤسس في داخله ثقافة تقوم على ممارسة سلوكيات وقيم وعادات بيئته، وكذلك الانطواء تحت مظلة هذه الأساليب التربوية ومحاولة عكسها في الاستخدامات الحياتية والتعاملات والتفاعلات ومن ثم نقلها إلى القادم من الأجيال كثقافة موروثة، أو تعرض الإنسان إلى وسائلٍ تربوية قد تدفع بها قنوات التنشئة الاجتماعية الأخرى وبحسب تطور وتغيير الحياة، وتحاول أنثروبولوجيا التربية الوقوف على كل هذه الجدليات فيما يتعلق بأساليب التربية القديمة والحاضرة ومدى تشكّلها وتأثيراتها والثقافات الناتجة عنها.

وأيضا من الفروع المعرفية الأخرى المتفرعة عن الأنثروبولوجيا تبرز الأنثروبولوجيا الطبية التي تدرس العلاقة بين العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية في الصحة والمرض ماضياً وحاضراً، ويركّز علماء الأنثروبولوجيا الطبية على الجانب البيولوجي من خلال التطور البشري والتغذية والنمو والتنمية حيث تركز دراساتهم على النظم التي تؤثر على الصحة (Ferraro–Andreatta,2010:13) .

وفي هذا الحقل المعرفي الذي أسَّسه دوركهايم يتم الوقوف على المؤثرات الثقافية والاجتماعية ودورها في التأثير على الصحة والأمراض التي تصيب الإنسان، من خلال دراسة أنماط وعادات الغذاء والطقوس الممارسة وفق الثقافة المُعاشة وغيرها، مما قد يؤدي إلى اعتلال الصحة والإصابة بالمرض.

وفيما يتعلق بالأنثروبولوجيا اللغوية فـــ" بعد أعمال التطوريين أمثال (سبنسر) الذي تأثر بالبيولوجيا التطورية لـــ(شارل داروين) العالم البيولوجي الانجليزي، اللذين بحثا في اللغات الأم، واللغات الحية والميتة كاللاتينية، الإغريقية، السريالية، القبطية، وبعد أعمال (فرديناند دي سوسير) و(جاكوب سون) اللذين مهدا للبنيوية، فإن الأنثروبولوجيا استفادت استفادة بالغة من هذه الدراسات والأعمال، وذلك من خلال البحث في تلك العلاقة الموجودة بين اللغة والثقافة في المجتمعات الشفاهية (تيلوين ،2011 : 37)، وقد جاءت الأنثروبولوجيا اللغوية لتكشف أطوار اللغات المختلفة في الكثير من الثقافات البشرية وتفرَّعات هذه اللغات، والتي تعكس توجهات وأفكار أفراد تلك المجتمعات والثقافات وميولهم ورغباتهم وذهنياتهم بحسب البيئات التي يخضعون للعيش فيها، أي أنها تساهم في

بناء قوالب ثقافية مختلفة تتميز عن غيرها بالاختلاف اللغوي وما يصدر عنه من وضع أُسس للحياة التي يحيا بها الإنسان.

وتبرز أيضا الأنثروبولوجيا البصرية كميدان حديث نسبيا في الأنثروبولوجيا بحيث تتضمن دراسة بعض جوانب الأبعاد البصرية للسلوك الإنساني وكذلك تطوير المعدات والوسائل البصرية التي تزداد دقةً وتعقيداً لغرض توظيفها في البحث والدراسات الأنثروبولوجية (سميث ، 2009 : 116)، على أن لا ننسى فروع معرفية أخرى قد لا يتسع المجال هنا لذكرها ولكن ينبغي الإشارة فقط لها من قبيل مثلاً الأنثروبولوجيا النفسية الأنثروبولوجيا السياسية، أنثروبولوجيا الفن، والمستقبل كفيل باشتقاق فروع أخرى تُكمل التطور في حقل الأنثروبولوجيا، على أنّ كل هذه الفروع المعرفية لم تظهر بشكلٍ اعتباطيٍ وإنما الحاجة والتراكم المعرفي هو من أظهرها ووضع لها حدواً مميزة، إذ أنّ كثرة تعقيدات الحياة وتفصيلاتها بالنسبة للإنسان تحتاج إلى من يقف على تناقضاتها ورصد مشكلاتها بالوصف والتحليل والمقارنة للوصول إلى نتائجٍ ممكن أن تُسهم في حلِ الكثير من الإشكاليات وتساعد في اشتقاق نظريات تحدد قواعد أساسية ممكن الاتكاء عليها كمرتكزات تضع في أيدي العلماء والباحثين مفاتيح التطور البشري وإشكالياته ونظم عيشه وممارساته وفعالياته وثقافاته المختلفة.

ثالثا: الأنثروبولوجيا كعلم مساهم في منهجة الحياة :

لعل الأنثروبولوجيا حالها حال بقية العلوم الأخرى التي نشأت من حاجات الإنسان المتعددة، جاءت لتساهم في إثراء حياة الإنسان بالوضوح وفك طلاسم الكثير من التعقيدات المتمثلة بطبيعتهِ والنظم التي يعيش فيها وتطورات حياته والسلسلة التاريخية التي مرَّت بها ثقافاته المختلفة وغيرها من الأمور التي تحاول رصدها الأنثروبولوجيا لتعكس صورة أشد دقة لمعترك حياة ذلك الإنسان، لذلك لا يمكن القول إلا أنها قد زادت من رصيد التفحَّص الدقيق في الحياة البشرية وتراكماتها المعرفية وقد جعلت من رؤيا الحياة البشرية أكثر وضوحاً ودون تعقيد يذكر، فمن المؤكد أنها وضعت إسهامات عديدة في الميدان الإنساني على اعتبار أنها انوجدت للإنسان بكل متضمناتهِ.

لذلك كيف ساهمت الأنثروبولوجيا في منهجة الحياة بالصورة التي تتلاءم والحياة الإنسانية المنشودة ؟

من المؤكد أنّ مشاهدة الحياة من منظور أنثروبولوجي سيؤدي إلى اكتساب فهم أكبر للحياة الشخصية في سياق فترة طويلة من التطور البشري والتنمية وتعلم أنماط السلوك والقيم الثقافية في المجتمعات البعيدة، والحصول على رؤى جديدة، وبالتالي فالأنثروبولوجيا تُغذّي التنوير بالشخصية والوعي الذاتي (Scupin , 2012 : 17)، على اعتبار أنها علم يكون لصيقاً بشكلٍ مباشر بكل دقائق حياة الإنسان، ومن يملك المنظور الأنثروبولوجي ويستخدمه بشكلٍ دقيق سيكون مؤهلاً لكشف الكثير من غموض الحياة والوقوف على تاريخها وتطوراتها ورصد ما يمكن وضعه لمشكلاتها وفق ما تم اكتسابه من خبراتٍ، وبذلك تساهم الأنثروبولوجيا هنا في خلق كيان مُحدَّد بأدوات أكثر دقة في اختبار الحياة التي يعيش في دواخلها.

لقد ساهمت الأنثروبولوجيا في مساعدتنا على فهم أنفسنا بشكلٍ أفضل، وربما تكون واحدة من أفضل الطرق لكسب المعرفة الذاتية، هو معرفة قدر المستطاع ما يتعلق بثقافة الإنسان الخاصة، لغرض فهم القوى التي تُشكِّل تفكيرنا والقيم والسلوكات الأخرى وأفضل وسيلة لتعلُّم ثقافاتنا هو أن نتعلَّم عن الثقافاتِ الأخرى (Ferraro–Andreatta,2010: 18–19)، ويكون من خلال معرفة مكونات ثقافاتنا وأنماطها والسمات التي طرحتها وكيفية تشكيلها ومدى اندماجها مع المؤثرات الحياتية الأخرى وكيفية استقبالها للناتج الثقافي الوافد من الخارج، بحيث تصبح لنا صورة أوضح عن الحياة التي نحيا بها لنتمكن من التعامل مع تعقيداتها بالطريقةِ المثلى.

فعدم معرفتنا بما انطوى عليه تطورنا البشري وتشكيل ثقافاتنا عبر التاريخ سوف لن يُعطينا صورة متوقعة لما ستؤول إليه الأمور في حياتنا الحاضرة، وقد ساهمت الأنثروبولوجيا بفروعها المتعددة في سبر غور هذه المتناقضات محاولةً مراكمة المعرفة العلمية حول هذا العلم لتحقيق أكبر فائدة للبشرية.

كما أنّ إسهام الأنثروبولوجيا ربما يقوم على أساس منهجية متميزة تتمثل بالاستقصاء الحقلي الطويل الأمد، المراقبة الخاصة، والتواصل المباشر بالمواضيع الاجتماعية الخاصة التي تحظى بدورها بتأويلٍ للعالم (اوجيه – كولاين ، 2008 : 7)، فالتجربة الحقلية للأنثروبولوجيا قد فتحت آفاقاً أرحب لهذا العلم وللبشرية، من خلال ترسيخ قوة بيانات ونتائج هذا العلم فضلاً عن تحقيق نتائج مهمة للظواهر الإنسانية

المختلفة، وعليه استطاعت أن تُبدَّد المخاوف من احتمالات عدم العثور عمّا يوضح الإشكاليات الكثيرة التي تعتري حياة الإنسان، فمن خلال الدراسات الحقلية استطاعت أن تتعرف أكثر فأكثر على سماتٍ بشرية خاصة وتفاعلات أخرى وأنماط ثقافية جديدة لا تتشابه بصورها مع ما تم رصده في السابق.

" لقد خصص الأنثروبولوجيون جزءً غير قليل من جهدهم لبحث الرس العرق Race وسعوا إلى اختيار الفرضيات المتعددة التي ترددت خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حول صلتهِ بالحضارة، وقد ادَّعت بعض الأوساط الفكرية العنصرية بأن اختلافات الرس هي المسؤولة عن تباين السلوك في المجتمعات البشرية، كما ادعى أصحاب تلك النظرية بان الرس يُحدد المواقف والاستعدادات الذهنية لدى الأفراد الذين ينتمون إليه " (النوري ، 1986 : 83) .

واستطاعت الأنثروبولوجيا أيضا أن تزرع مهارات التفكير النقدي بالاعتماد على المنهج العلمي حول البيانات التي تم جمعها من الميدان، وتخلق الأنثروبولوجيا وعياً عالمياً آخذاً بالتوسع وكذلك تخلق تقديراً ومنظوراً متعدداً للثقافات الأخرى، بحيث تسمح لنا بأن نرى أنفسنا كجزء من أسرة إنسانية واحدة في ظل كل هذه التنوعات الهائلة.

أيضا من الأمور التي ركَّزت عليها الأنثروبولوجيا وأسهمت فيها في الحياة الإنسانية هي دراسة سكان العالم من زاوية أوجه التشابه والاختلاف البيولوجي، لتشخيص السلالات البشرية وكيفية انتشارها وتطورها في الأقاليم الجغرافية أو الطبيعية المختلفة، وقد تعرَّفت على العديدِ من السمات البيولوجية المتشابهة والمختلفة بين هذه السلالات (النوري ،1986 : 45-46)، واستطاعت أن ترصد توزع الثقافات البشرية وأصولها وتطوراتها وما حملته من التاريخ والصورة التي ظهرت عليها والتوقعات بشأن نشوء أجيال حاملة لسماتٍ ثقافية قد تكون متشابهة أو مختلفة عن التي سبقتها، وكذلك تتبع الاختلافات اللغوية وانحداراتها وسبب اختلافها ومدى تطورها ونشوءها، والمقارنة بين الأعضاء البشرية في الماضي وكيفية تطورها في الحاضر.

إنها ساهمت في التعرَّف على معادلاتِ الكثير من الثنائيات في حياة الإنسان بمساعدة العلوم الأخرى، فقد اختطَّت لها طريقاً في الغور في سيكولوجية الإنسان من باب تأثير الثقافة المُعاشة في تشكيلها وأثرها هي في صياغة الثقافة التي تتلاءم مع معطيات

الحياة التي يحيا بها الإنسان، وأوردت الكثير من الدراسات حول هذا الشأن وأفردت فرعاً معرفياً خاصاً لها، وكذلك ساهمت في التعرَّف على طقوس الإنسان القديم كجزء من حضارته وارتباطاته الدينية وأعرافه وتقاليده وربطها بالنظم الحاضرة والمعاصرة والفحص عن اقتصاديات الإنسان وكيفية تحقيق الاستهلاك الاقتصادي وطقوس التبادل والبيع والشراء واختلاف صورهم، والغور أيضا في سلطات وسياسات حكم وقيادة المجتمعات البشرية وإجراء الاختبارات الحقلية الكثيرة عنها، ونقَّبت في المتحجَّرات والجينات الوراثية وبحثت في الفن واختلافاته عند الشعوب القديمة ومقارنتهِ في الشعوب الحديثة وكيف تطوَّرت نظم الفن وطقوسهِ، وساعدت في تتبَّع أُصول القرابة في حياةِ الإنسان وقوانين نشوءها ونظم الزواج والأسرة والمصاهرة، وغيرها من الصور التي استطاعت من خلالها الأنثروبولوجيا كعلم يُعنى بكل ما يتعلق بالإنسان أن تُحقق تقدماً كبيراً للبشرية.

إنّ جل ما تحاول القيام به الأنثروبولوجيا هو ربط ماضي الإنسان بحاضرهِ من خلال تتبع تاريخ تطوره في كل الجوانب للبناء على أساس ما تقدَّم ومعرفة نقاط الالتقاء والتقاطع في حياتهِ، فهي تُراكم المعرفة من خلال التجريب الحقلي الميداني لكشف أصول الحياة البشرية التي نعيشها والبيئة التي ننشأ فيها، وما مدى تأثرنا بها، معتمدة في ذلك على المناهج البحثية المُتَّبعة والتي تتعلق بنوعية الباحث الذي يستخدمها والتي يُفترض أن تكون دقيقة، ليستطيع أن يستقصي المعلومة والملاحظة بشكلٍ يُمكَّنه من التفسير والتحليل بوضوحٍ للوصول إلى نتائج مُرضية.

وفي خضم التعقيد الهائل الذي نعيشه اليوم تحاول الأنثروبولوجيا أن تُسهم في فك ملابسات التغيرات القيمية والثقافية الكثيرة والتطورات في النظم وتبدُّلات الطقوس وكذلك استشراف المستقبل وفق المعطيات التي يمكن الحصول عليها من الميدان، إنها تقرأ الواقع بعينٍ فاحصة دقيقة لتكوَّن لها مجموعة من الأفكار القابلة للتفسير وللكشف عن غموض الكثير من المعطيات التي باتت بحاجةٍ إلى وضعِ حلولٍ لها.

إنها تُفتَّش عن مديات وفراغات أوسع في جوانب حياة الإنسان لتُمدَّد جذورها في دواخلها من خلال التنقيب عن فروع معرفية أخرى ممكن أن تُكمل التراكمات السابقة،

وهي بالتالي ستُسهم في إماطة اللثام عن متغيرات كثيرة مازالت تنتظر من يتحرك صوبها وتضع أجوبة كثيرة لأسئلة كانت تصطف عسى أن يبرز من يجيب عنها.

لقد أصبحت الأنثروبولوجيا كمتَّكأ للإنسان فضلاً عن بقية العلوم الأخرى، فقد قدَّمت خدمة جليلة له بسبر غور معطيات كثيرة كان غير قادر على فقهها بالمعنى والصورة التي تُمكَّنه من الحياة بصورةٍ تتلاءم ومستوى إلمامه بها ونسج التوقعات العديدة حولها، إذ اختطَّت له أداة تنقيبية تربط الأجزاء بعضها ببعض لتشكَّل الصورة الحقيقية عن الماضي والواقع الذي يعيش فيه.

رابعاً : معطيات وصور عن واقع الأنثروبولوجيا العربية :

بعد التطرَّق لمفهومات علم الإنسان وأبرز فروعه المعرفية التي نشأت ومازالت تنشأ وأبرز الإسهامات المعرفية التي تقدَّمها الأنثروبولوجيا للحياة الإنسانية، كان لابد من التعريج ولو ببعضِ الصور حول دخول الأنثروبولوجيا كعلم في الواقع العربي ونشأته وأبرز المشكلات التي واجهت وتواجه سبل تركيزهِ والعمل بهِ في المجتمع.

حسبما يُذكر أنّ الصحيح تاريخياً ومنهجياً بأنّ الأنثروبولوجيا نشأت كعلمٍ عربي، بحيث لم يكن العالم الغربي على معرفةٍ به آنذاك حتى جاء به العرب في الإسلام، وقام بوضع أسسه الأولى في العصر العباسي، إمام الأنثروبولوجيا العربية الأصمعي، حين تجوَّل وتنقَّل في مضارب العديد من القبائل لجمع كل ما هو غريب من الكلام، بحيث لم يترك شاردة وواردة إلا وذكرها عن كل ما يتعلق بها، وفي ذلك إشارة إلى الأسلوب الأنثروبولوجي المُتَّبع في العلم بحد ذاته بحيث لم يكن آنذاك الاستخدام وفق ناصية الأنثروبولوجيا وإنما بطريقة الجمع لأغراضٍ معينة، ولكن وضعت الحدود للأنثروبولوجيا وتم تثبيت الاسم الخاص بها في الثقافات الغربية وقتها.

ويمكن أن يندرج الأمر على الكثير من الرحالة والمبشرين العرب الذين كانوا يجمعون كل المعلومات الوصفية عن الثقافات التي يمرَّون فيها ويتعرفون على ثقافات الأفراد هناك، من قبيل مثلا ابن خلدون وابن فضلان وابن بطوطة وغيرهم، وليس تحت مظلة اسم الأنثروبولوجيا وإنما بالطرق التي تتشابه مع المنهج الأنثربولوجي البحت، إذ كانوا يجمعون المعلومة ويصفون بنفس الطرق الأنثروبولوجية المُتَّبعة، وامتلكوا صفات

أخرى غير التدقيق الأنثربولوجي إذ كانوا مؤرخين وسيكولوجيين وسوسيولوجيين دون أن يعلموا أنهم متخصصون ببعض هذه العلوم.

يمكن القول أنه على الرغم من غنى العلوم في التراث العربي، إلا أنّ الأنثروبولوجيا لم تلق الاهتمام الكافي في الدوائر العلمية والبحثية العربية مقارنة بالمؤسسات العلمية الغربية وباحثيها سواء في البحوث الميدانية / التطبيقية أو في الدراسات الفلسفية والتربوية والنفسية (الشماس ، 2013: 1)، ويدخل حداثة العلم طرفاً في قلة الاهتمام هذا فضلاً عن أمور أخرى كثيرة سنتطرق لها لاحقاً.

يشير بعض الباحثين الأكاديميين العرب إلى أنّ الأنثروبولوجيا دخلت إلى العالم العربي في الثلاثينيات من القرن العشرين تحت اسم علم الاجتماع المقارن عن طريق عددٍ كبيرٍ من علماءِ الأنثروبولوجيا البريطانيين مثل (ايفانز بريتشارد – هو كارت – وبريستافي) من الذين قاموا بالتدريس في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن)، بعد ذلك جاء في الأربعينيات عميد الأنثروبولوجيين الأستاذ راد كلف براون الذي قام بتدريس الأنثروبولوجيا في جامعة الإسكندرية، تحت اسم علم الاجتماع المقارن أيضا، وذلك بسبب عدم إدراج الأنثروبولوجيا في لائحة مواد التدريس في ذلك الحين (الشماس ،2013 :1)، بمعنى جاء هؤلاء العلماء والرواد بأفكار الأنثروبولوجيا إلى المجتمع العربي بحيث فتحوا آفاقاً أرحب للنظر في هذا العلم إلى جانب علوم أخرى وبالذات علم الاجتماع، فلم تكن هناك أساسات واضحة للأنثروبولوجيا من ناحية التدريس أو تخصيص لها مجال واضح إلا من خلال الإشارات لها في ثنايا علم الاجتماع في بعض الأفكار من الدراسات الأنثروبولوجية التي انطلقت في الثقافات الغربية آنذاك.

لعل بعض الباحثين العرب قد عزا عدم الترحيب بالأنثروبولوجيا وانتشارها في العالم العربي إلى سببين أساسيين هما: أولهما؛ هو عدم تقبل فكرة التطور الحيوي عند الإنسان والذي يتعارض مع الفكر الديني وتفسيراته التي ترى أنّ الإنسان قد خلقه الله تعالى، وليس من إنتاج سلسلة تطورية حيوانية إلا أنّ بعض المفكرين العرب دعوا إلى التوفيق بين الفكرتين وأخذ ما ينفع منهما. وثانيهما؛ ارتباط الأنثروبولوجيا وبداياتها التاريخية بالاستعمار، بحيث كانت الدراسات تُقام لمعرفة أصول المجتمعات وثقافاتها وطبيعتها الأمر الذي يُسهّل السيطرة الاستعمارية عليها مع تزامن ذلك باستعمار واحتلال

المجتمع العربي والذي يسعى للخلاص منه (الشماس ، 2013: 1)، بحيث تكشف كل هذه الدراسات القيم والمعايير والنظم الثقافية والاجتماعية للشعوب وطبيعة عيشهم والأساليب التي يمكن من خلالها كسب رضاهم أو استغلالهم والدخول إلى نقاطِ الضعف الخاصة بهم، وهذا ما لم يرتضيه الواقع العربي بحيث عدَّ ذلك هو تمكين مُباشر للاستغلال من قبل القوى الاستعمارية، والكثير من الدول المُستعمِرة عندما تحاول احتلال مجتمع ما ترمي إلى الركون إلى الدراسات الأنثروبولوجية على الأغلب مع السيكولوجية والاجتماعية لمعرفة واقع هذه المجتمعات لتسهيل قضية الدخول إليها ومحاولة استغلالها.

إلا أنّ ذلك قد يؤدي إلى إغفال أمور جد مهمة ممكن أن تكشف عنها الدراسات الأنثروبولوجية التي تساعد على التعرَّف على تاريخ وارث الثقافات وتطورها وتغييرها والتقلبات التي تمر واختلاف السمات الثقافية وما يمكن أن تكون عليه المجتمعات العربية وغيرها، فلا يمكن الاستغناء عن هذه الدراسات لمجرد فقط أنها ممكن أن تكون أداة مساعدة تكشف للمستعمرين كل واقع هذه المجتمعات وحياتها.

لعل الأنثروبولوجيا اليوم وحتى علم الاجتماع من العلوم الحديثة التي مازالت غير معروفة بشكلٍ كبير في كثيرٍ من الأقطار العربية، لذلك لابد من بذل جهود علمية وإعلامية كبيرة للتعريف بأدوارهما وأهدافهما، والمتخصصون في هذه العلوم يواجهون اليوم هذا التحدي الكبير في المجتمع العربي في الوقت الذي بات أكثر المواطنين في الأقطار المتقدمة لهم علم ودراية ولو كانت بسيطة بهذه العلوم(النوري ، 1990 : 265)، فبالقياس مع العلوم الأخرى الطبيعية منها وحتى الاجتماعية والإنسانية لم يصل رصيد الأنثروبولوجيا إلى ما وصلت إليه هذه العلوم من ناحية النشأة والإشارة لها، لذلك تكون من المهمات الصعبة على المتخصصين هو كيفية توسيع رقعة هذا العلم في المجتمع العربي والذي يحتاج إلى جهودٍ كبيرة تتعلق بالتعريف به وإقامة الدراسات التي تُثبت أهميته والحصول على النتائج التي تخدم الغرض الإنساني.

ولعل من أبرز المشكلات التي تواجه واقع الأنثروبولوجيا في الوطن العربي هو ما يتعلق بالمناهج الدراسية والتي تحتاج إلى ملائمة لواقع وثقافة المجتمع العربي، هذا بالإضافة إلى العقبات التقنية والرسمية التي تحول دون إتمام الباحثين الأنثروبولوجيين لأدوارهم ومهامهم العلمية (النوري ، 1990 : 265)، فضلاً عن عدم الاهتمام الكافي

من خبراء الأنثروبولوجيا أنفسهم بهذا العلم وانشغالهم بأمورٍ أخرى قد تتعلق بالتدريس والأعمال العلمية الأخرى التي قد تدخل في مجال غير مجال البحث الأنثربولوجي وإنما تتعلق بأمور إدارية أخرى.

وكذلك عدم وجود الرغبة الكبيرة في توسيع هذا التخصص المعرفي ونشره بشكلٍ أكبر، بمعنى قصور الوعي الضروري بأهمية الأنثروبولوجيا وما يمكن أن تقوم به في تهيئة المعلومات الواضحة للثقافات ونظم المجتمعات وكافة أطراف حياتها، فضلاً عن عدم الجدية الإدارية والمتمثلة في برامج التعليم التي لا تشتمل في كثير من المجتمعات العربية على تدريس الأنثروبولوجيا والاهتمام بما يمكن أن يوفره هذا العلم، فالأمر يحتاج إلى تأسيس قاعدة أنثروبولوجية في المجتمع العربي تقوم على محاولة تثبيت الحدود لهذا العلم ونشر توسعهِ بشكلٍ أكثر جدية والتعمق في إبراز أهمية الدراسات والوصف الأنثربولوجي الميداني من خلال ربط الظواهر المجتمعية العربية بالتجريبِ والدراسة، للحصول على أفضل النتائج، مع التوسَّع في اشتقاق الفروع المعرفية من هذا العلم لتواكب التعقيدات التي تنتاب المجتمع البشري، بالمقارنة مع التوجهات الغربية التي انطلقت منها الأنثروبولوجيا ومازالت تُشكِّل علماً مهماً وخطراً بالمقارنةِ مع العلوم الأخرى في تسلسل العلوم فيها.

يمكن القول أنّ عدم وضع رؤية واضحة لهذا العلم في المجتمع العربي من قبل القائمين عليه وربط دراساته وتوجهاته بالغرب والاستعمار وتناقض ذلك مع التوجهات الدينية والمحافظة وكذلك دخوله في فترة متأخرة لهذه المجتمعات، هو من جعل صورة العلم تبدو بهذا الشكل الذي يحتاج إلى تضافر الجهود بشكلٍ جدَّي للرفع من شأن الأنثروبولوجيا لما فيها من خدمة ومنافع كبيرة للإنسان العربي خاصة والعالم بشكلٍ أكبر.

خاتمة :

عملت الأنثروبولوجيا على الغور في ثنايا الشأن الإنساني ووجدت لها مريدين من الرواد الأوائل في العالم وقد جمعت بتوجهاتها كل توجهات العلوم الأخرى لتتفرع منها عدة فروع ومازال البحث عن طريق التراكم المعرفي مستمر لاشتقاق الفروع المعرفية الجديدة التي تتفرع منها، لزيادة الأجوبة عن الأسئلة الإنسانية الكثيرة التي تحتاج إلى توضيح، لقد جاءت الأنثروبولوجيا للكشف عن غموض كبير في الحياة الإنسانية وعملت

لأجل ذلك العديد من الدراسات التطبيقية التي اختبرت الميدان فيها واستطاعت بالوصف والتفسير والتحليل والتأويل أن تتوصل إلى التنظير الأنثربولوجي المهم الذي بات يعتمد عليه الإنسان في حياتهِ، ودخلت الأنثروبولوجيا إلى المجتمع العربي بشكلٍ خجول متضاربة في ذلك مع التفكير الديني والأطروحات الفكرية التي ترى منها تدخَّل في خلق الإنسان ومدعاة لكشف المجتمع لكل قوى استعمارية تحاول استغلاله، ومازالت بحاجةٍ إلى ترسيخ بشكلٍ اكبر بتوسيع الوعي بالمعرفة الأنثروبولوجية وتوسيع الدراسات التي من شأنها أن تسلسل التطور الحضاري العربي والتغييرات التي طرأت عليه وكيفية التعامل مع السمات الحضارية الخاصة به في الوقت الحالي.

المصادر :

المصادر العربية :

1. عبد الرزاق ، سعدي فيضي ، (1989) ،المدخل الى علم الانسان ، مطبعة التعليم العالي في الموصل ، الموصل ، ص10 .
2. سميث ، شارلوت سيمور ، (2009) ، موسوعة علم الانسان : المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة مجموعة من اساتذة علم الاجتماع ط2 ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ص 113–116 .
3. الشماس ، عيسى ،(2013) ، واقع الأنثروبولوجيا العربية ، مقال منشور على شبكة الانترنيت ، ص1 : .alhiwartoday.net/node/7721
4. النوري، د. قيس ، (1986) ، ما الأنثروبولوجيا ، سلسلة الموسوعة الصغيرة (175) ، دائرة الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ص7–8 – 12 – 83 .
5. النوري ، قيس ، (1990) ، آفاق التغير الاجتماعي النظرية والتنموية ، مطابع التعليم العالي ، جامعة بغداد ، ص108–109 .
6. أوجيه ، مارك – كولاين ، جان بول ، (2008) ، الأنثروبولوجيا ، ترجمة : د. جورج كتورة، سلسلة نصوص، ط1 ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ص7–24 .

7. تيلوين ، مصطفى ، (2011) ، مدخل عام في الأنثروبولوجيا ، دار الفارابي – منشورات الاختلاف ، ط1 ، بيروت – الجزائر ، ص17 – 19 – 20 – 21– 30 – 37 .

المصادر الاجنبية :

1. Barnard , Alan , (2004) , History and Theory in Anthropology , The Edinburgh Building, Cambridge CB2 2RU, UK , p.1-2-3 .
2. Ferraro, Gary – Andreatta, Susan, (2010), Cultural Anthropology An Applied Perspective ,eighth edition, wads worth, Cengage Learning, the united states of America, p. 4-5-6-13-14-18-19 .
3. Park, Michael Alan ,(2011), Introducing Anthropology : An Integrated Approach , Fifth Edition , a business unit of The McGraw-Hill Companies, Inc, New York , p. 29.
4. Scupin ,Raymond ,(2012),culture anthropology : A global perspective , Eighth Edition , USA , p. 7- 17- .
5. Haviland ,William A and Others , (2007), the essence of anthropology , Thomson Wadsworth , USA. p.15 .
6. Haviland ,William A and Others ,(2008), Cultural Anthropology : the Human Challenge , twelfth edition , Wadsworth , Thomson higher education , USA , p. 8-9 .